مفهوم الروح والوجود الإنساني عند ماكس شيلر

المدرس المساعد: حوراء حميد محسن

hawraa77@uomstansiriyah.edu.iq

يُعدّ مفهوم الروح من أكثر المفاهيم إثارةً للجدل في تاريخ الفلسفة، إذ طالما ارتبط بمسائل الوعي، الحرية، والعقل، إلا أن ماكس شيلر قدّم لهذا المفهوم قراءة نوعية تنطلق من رؤية فينومينولوجية-أنثروبولوجية، تُخرجه من دائرة التصورات التقليدية التي حصرت الروح في نطاق الملكات النفسية أو الوظائف العقلية. إن السؤال الذي ينطلق منه شيلر هو: ما ماهية الروح؟، وهو سؤال يتجاوز التعريفات الصورية ليصل إلى فهم جوهري لطبيعة الوجود الإنساني في تمايزه عن باقي الكائنات الحية.

1_ الإشكال المفهومي: غموض تعريف الروح وماهيته

ينطلق ماكس شيلر في تحليله لمفهوم الروح من ملاحظة أساسية مفادها أن هذا المفهوم من أكثر المفاهيم التي تعرضت لسوء الفهم والغموض في تاريخ الفكر، إذ نادراً ما مُنحت كلمة "الروح" تحديداً دقيقاً ومعنى فلسفياً واضحاً. ولذلك يسعى شيلر إلى بلورة تصور مغاير، ينأى بالروح عن كونها مجرد وظيفة معرفية عُليا أو طاقة داخلية مشروطة بالمحيط البيئي والغرائز الطبيعية.

فالروح، بحسب شيلر، ليست نتاجاً للبيئة ولا خاضعة للرغبة، بل هي وجود متحرر من شروط المحيط، وتملك "كوناً" خاصاً بها، أي أنها منفتحة على العالم في استقلاليته وتعدديته، ويرى شيلر أن الوجود الروحي، الذي يمثله الإنسان، قادر على تجاوز ما هو معطى أو فطري في بيئته، ورفع مراكز المقاومة والاستجابة الكامنة فيها. فالروح في جوهرها موضوعية، أي أنها تملك قدرة خاصة على تحديد الوجود بما هو كذلك، وعلى تلقي هذا التحديد والانفعال به استجابة حرة.

2_ العلاقة بين الروح والمبدأ الحيوي وسلوكه

وتقوم هذه القدرة على علاقة تبادلية بين الروح والمبدأ الحيوي الذي يدعم وجودها، ولتوضيح هذا التمايز، يعمد شيلر إلى المقارنة بين سلوك الحيوان وسلوك الإنسان، من خلال تحليل الطابع السيكولوجي لسلوك الحيوان الذي يخضع للمنظومة العصبية والحسية ولدوافع بيولوجية مباشرة. فالحيوان، وفقاً لشيلر، لا يدرك موضوعات، بل يعيش منغمساً في بيئته، أسيرًا لها، وعاجزًا عن تحويلها إلى موضوع مستقل أمامه.

أما السلوك الإنساني، باعتباره سلوكاً روحياً، فيتجلى فيما يسميه شيلر بـ"الدراما الإنسانية"، التي تتكون من ثلاثة أفعال أساسية: 1_ الفعل الأول: انفتاح السلوك الإنساني على الوجود بما هو كذلك،

إذ يُحشد الموضوع إدراكياً من خلال حدس روحي مرتفع، مستقل عن دوافع الجسد وغرائزه، ومتحرر من المظهر الحسي الخارجي.

2_الفعل الثاني: يتمثل في قدرة الشخص، بوصفه مركزاً للحرية، على قمع أو تحرير دافع فطري معين، مما يدل على فاعلية الروح وتلقائيتها.

3_ الفعل الثالث: وهو تحوّر الموضوع المحسوس نفسه ضمن علاقة الإنسان به، بحيث يُختبر في قيمته الخاصة بوصفه موضوعاً روحياً، لا مجرد محفز حسّي.

وتُعدّ هذه الأفعال الثلاثة عند شيلر أساساً لما يسميه بـ"الانفتاح على العالم"، وهو المفهوم الذي يحدد به الإنسان بوصفه الكائن الوحيد القادر على التفتح اللامحدود على الواقع، وهو ما يجعله يتجاوز التموضع داخل الحدود البيئية والوظيفية للأنواع الحية الأخرى، ومن هنا، يعرف شيلر الإنسان بأنه: "الكائن الذي يستطيع، بلا أدنى حدود، أن يسلك كوجود منفتح على العالم".

3_ المقارنة مع هيدغر: الأنثروبولوجي مقابل الأنطولوجي

ورغم تشابه هذا الطرح مع مقولة هيدغر حول الأنوية (Dasein) بوصفها وجوداً منفتحاً، فإن شيلر يختلف في تركيزه على تحليل الوجود الإنساني من منظور أنثروبولوجي في مقابل منظور هيدغر الوجودي-الأنطولوجي.

فشيلر يبدأ من "نسيان الإنسان" كضياع للماهية الإنسانية الأصلية في ركام التصورات التقليدية، بينما ينطلق هيدغر من "نسيان الوجود" باعتباره الجذر الميتافيزيقي الأعمق الذي يكشف عن حقيقة الموجودات.

ويُقابل الانفتاح الروحي الإنساني عند شيلر، حالة الافتتان البيئي للحيوان، الذي يظل أسير عالمه المباشر، غير قادر على اتخاذ مسافة موضوعية منه. فهو، مثل المحار الذي يسكن صدفته، يعيش ضمن بنية مغلقة لا يرى ما يتجاوزها.

4_ الفعل الروحي وتمييزه عن الفعل الحيواني يركز شيلر في تحليله على الصيغة المنطقية للروح، باعتبارها قدرة على تحويل الموجود إلى موضوع، ويميّز بين ما يسميه "التحويل البسيط" لدى الحيوان المرتبط بالمخطط الجسدي ومحتوياته الحسية، و"الفعل الروحي" الذي لا يمكن أن يقوم به سوى الإنسان.

فالروح عند شيلر هي مركز للحرية، وهي تمثل التلقائية التي تسمح للشخص بأن يكون فاعلاً لا منفعلاً فقط، وتتيح إمكانية تجاوز دوافع الحياة العضوية، ومن ثم تأسيس وعي يتجاوز الإدراك الحسي إلى إدراك القيم والمعاني.

ويصر شيلر على التمييز بين الروح والعقل، رافضاً مساواة أحدهما بالآخر كما تفعل بعض التقاليد الفلسفية، لا سيما الفلسفة الأرسطية والديكارتية.

فالعقل، عنده، ليس خاصية فطرية خالصة، بل مكتسب تطوري، بينما الروح تمتاز بالتلقائية والقدرة على القيادة، وتعبّر عن مستوى أعلى من التنظيم الإنساني يعلو على النزعات النفسية والوظائف العضوية.